

من مظاهر تطور الطب في بلاد الشام

في القرنين السادس والسابع الهجريين

ابراهيم بن مراد

لم تشهد بلاد الشام في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) ما شهدته بقية العواصم الاسلامية من ازدهار في العلوم الطبية ومباحثها . فالقرن الثالث كادت تستأثر بمظاهر الازدهار فيه بغداد عن سواها ، نتيجة نشاط بيت الحكمة فيها ، وتواصل هجرة الجنديسابوريين اليها ، وهي هجرة كانت قد بدأت في القرن الثاني . أما في القرن الرابع فقد عمت مظاهر الازدهار عواصم أخرى ، وخاصة قرطبة والقيروان في بلاد المغرب . وقد شهدت تلك الحركة العلمية تقلصاً في القرن الخامس قد شمل - ما عدا بلاد الأندلس - معظم البلاد الاسلامية . ثم استعادت في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) مدنها كأشد ما تكون ، ليس من حيث عدد الأطباء الممارسين فحسب بل من حيث تنظيم المهنة وكثرة المؤسسات الاستشفائية واحكام الاشراف عليها وتسييرها .

ولو أردنا ايجاز أهم ما تميزت به هذه الفترات كلها من تاريخ الطب في البلاد العربية الاسلامية لقلنا أن القرن الثالث الهجري كان عصر الترجمة ، وأن القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس كان عصر ظهور المؤلفات الكبرى في الطب، مثل « الحاوي في الطب » لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي ، و « زاد المسافر » لأبي جعفر أحمد بن الجزار ، و « الكامل في الصناعة الطبية » لعلي بن عباس المجوسي ، و « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، و « القانون في الطب » لأبي علي الحسن بن سينا . أما القرنان السادس والسابع فقد مثلا عصر التطبيق لما انتهت اليه المعارف

* قدم هذا البحث في « ندوة السمات الانسانية للعلم والعمل في بلاد الشام » التي نظمت بدمشق بين ٥ - ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٤ .

العربية الإسلامية في مجال الطب ، فكلت التأليف الطبية المبتكرة وكثرت الشروح للمؤلفات السابقة، وأنشئت المدارس لتعليم الطب والبيمارستانات للمعالجة ومتنت صلة السلطة السياسية بالعمل الطبي . وقد كانت بلاد الشام طيلة هذه الفترة الأخيرة - وخاصة في القرن السابع - عاصمة البلاد الإسلامية بحق في مجال الطب ، لا تضاهيها بلاد إسلامية أخرى فيما وصلت اليه من تطور في الممارسة الطبية ، رغم ما عرفته في هذه الفترة من الحروب ، وخاصة الحروب الصليبية . وغايتنا الأساسية من هذا البحث هي استجلاء المظاهر الأساسية الدالة على ذلك التطور ، أسهاماً منا في إبراز الدور الذي قامت به هذه البلاد المباركة في تطوير العلوم العربية الإسلامية .

١ - هجرة الأطباء الى بلاد الشام :

لقد كانت بلاد الشام - وخاصة مدينة دمشق - مقصودة يشد اليها الأطباء الرحال . وهي ظاهرة تدل على المنزلة التي كانت تتميز بها عن سواها من البلاد الإسلامية في نظر الأطباء . ويبدو أن ذلك التميز لم يكن بسبب ما كان الأطباء يأملونه من حظوة وتشجيع في بلاد الشام فقط بل بسبب رخاء العيش فيها . فقد روى لنا القفطي عن الطبيب الأندلسي أبي الحكم عبدالله بن المظفر المرسي القصة التالية : « فارق [العراق] على نية قصد المغرب ، فلما حل بظاهر دمشق سيّر غلاماً له ليبتاع منها ما يأكلونه في يومهم ، وأصحابه نزلوا يكفي رجلين . فعاد الغلام ومعه شواء وفاكهة وحلواء وفقاع وثلج . فنظر أبو الحكم الى ما جاء به وقال له عند استكثاره : أوجدت أحداً من معارفنا ؟ فقال : لا ، وإنما ابتعت هذا بما كان معي ، وبقيت منه هذه البقية . فقال أبو الحكم : هذا بلد لا يحل لذي عقل أن يتعداه ودخل ، وارتاد منزلاً سكنه ، وفتح دكان عطر يبيع به العطر ويطب (١) » .

ولقد كانت هجرة الأطباء الى بلاد الشام قوية بالقياس الى ذلك العصر ونظر الظروف الحرب التي كانت البلاد تمر بها . وقد كانت الهجرة اليها من أصقاع شتى ، وخاصة من بلاد المغرب والاندلس والعراق . ومن أشهر الأطباء المغاربة الوافدين الذين كان لهم تأثير في تطوير المباحث الطبية نذكر أبا الحكم السابق ذكره (ت ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م) (٢) . وقد جاء دمشق من العراق بعد سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م وقد كان لأبي الحكم ابن قد نبغ هو أيضاً في الطب واشتغل به في دمشق ، هو أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم (عاش في القرن السادس) (٣) ، وأبا جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي (ت ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) (٤) ، وأبا الفضل عبد المنعم بن عمر الاندلسي (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) (٥) ، وقد جاء دمشق قبل سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . وأبا زكرياء يحيى بن اسماعيل البياسي الأندلسي (عاش في القرن السادس) (٦) ، وقد جاء دمشق بعد اقامته في القاهرة ، ويوسف بن يحيى بن اسحاق السبتي الفاسي (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) (٧) ، وقد كانت إقامته في حلب ، وأبا محمد عبدالله بن أحمد ابن البيطار المالقي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) (٨) ، ويبدو أن أول مجيئه الى دمشق - من

القاهرة - كان سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وبدمشق كانت وفاته ، وقد كانت الصيدلة أغلب عليه من الطب ولذلك كان يعيش في معظم أنحاء بلاد الشام . وأما الأطباء الوافدون من العراق فنذكر منهم بالخصوص نجم الدين أبا الفتوح أحمد بن محمد ابن السري (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) (٩) ، ومهذب الدين أبا الحسن علي بن عبد الله النقاش (ت ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م) (١٠) وفخر الدين أبا عبد الله محمد بن عبد السلام المارديني (ت ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م) (١١) ، على أن أصل أجداد المارديني هذا من بيت المقدس ، وقد جاء بلاد الشام سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م وبقي بها أربع سنوات ، سنتين في دمشق التي غادرها في سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، وسنتين في حلب التي غادرها الى ماردين سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، وموفق الدين أبا محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) (١٢) ، الذي جاء بلاد الشام من مصر ، وأقام بدمشق وحلب وبيت المقدس ورجع الى بغداد حيث كانت وفاته ، ورضي الدين أبا الحجاج يوسف بن حيدرة الرحبي (ت ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م) (١٣) ، وقد جاء دمشق مع والده فاستقر بها ، بعد اقامة في بغداد وفي القاهرة ، وقد أنجب هذا الطبيب ابنين كان لهما هما أيضاً دور متميز في المباحث الطبية في دمشق خاصة ، وهما جمال الدين عثمان بن يوسف الرحبي (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) (١٤) ، وهذا قد أنهى حياته في مصر التي هاجر اليها عندما دخل التتار بلاد الشام ، وشرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف الرحبي (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م) (١٥) ، وقد كان مولد هذين الطبيبين ومنشؤهما في دمشق .

هؤلاء أحد عشر طبيباً من الأطباء اللامعين قد هاجروا الى بلاد الشام وخاصة الى دمشق ، وقد كانت هجرة معظمهم في القرن السادس وكانت اقامة جلهم نهائية ، وخاصة في دمشق ، ولا نعرف عاصمة اسلامية غير دمشق قد استقطبت في القرن السادس مثل هذا العدد من الكفايات الطبية . انطلاقاً من ذلك فانه يحق لنا أن نقول بدون مبالغة أن دمشق كانت أهم عاصمة علمية اسلامية في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي تستهوي الأفئدة فيميل اليها الأطباء ويقصدونها .

٢ - منزلة الطب والأطباء :

لقد حظي الأطباء والطب عامة بمنزلة رفيعة في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين . ولا بد من الثناء هنا على الدور المهم الذي كان للملوك والأمراء الأيوبيين في ذلك . ومن أهم الدلائل على رفعة تلك المنزلة :

أ - استصحب الملوك الأطباء واصطفأؤهم لخدمتهم . فقد كان كل ملك يصطفي لخدمته ولخدمة القصر عدداً كبيراً من الأطباء قد يبلغ الخمسة عشر طبيباً ، منهم من يرافقه في حله وترحاله ، والطبيب يُختار عادة لشهرته وجودة ممارسته . ونطاق هذه المحاضرة يضيق عن تعداد الأطباء الممتازين الذين صحبوا الملوك .

ب - اهتمام أمراء الأقاليم باستصحاب الأطباء أيضاً . ولم يكن هؤلاء أقل قيمة وشهرة من الأطباء الذين يصحبون الملوك . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر هنا مهذب الدين

يوسف بن أبي سعيد السامري (ت ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) (١٦) الذي خدم بالطب أميري بعلبك عز الدين فخر شاه الأيوبي وابنه مجد الدين بهرام شاه (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) والطبيب أبا الثناء سديد الدين محمود بن عمر بن رقيقه (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) (١٧) (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) الذي خدم بالطب أمير حماء المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين الأيوبي (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) ، والطبيب سيف الدين أبا الحسن علي بن محمد الأمدي (ت ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م) (١٨) الذي خدم نفس الأمير السابق ، ناصر الدين صاحب حماء ، والطبيب أبا الحسن بن غزال بن أبي سعيد (ت ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) (١٩) الذي خدم بالطب أمير بعلبك مجد الدين بهرام شاه ثم من بعده أمير دمشق عماد الدين اسماعيل بن أبي بكر الأيوبي (ت ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) ، والطبيب نجم الدين أبا زكرياء يحيى بن محمد اللبودي (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٧٦ م) (٢٠) الذي خدم أمير حمص ابراهيم بن أسد الدين شيركوه (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) والطبيب المؤرخ موفق الدين أبا العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م) (٢١) الذي خدم بداية من سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م أمير صرخد عز الدين أيدير بن أيبك (ت ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) قبل أن يصبح ملك مصر سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م .

ولقد كان أولئك الملوك وهؤلاء الأمراء جميعاً يصطحبون الأطباء ويقربونهم اليهم دون أي اعتبار لعقائدهم، ولذلك كان من بين الأطباء المقربين عدد من اليهود والمسيحيين الذين لقوا حظوة كبيرة سواء في مصر أو في بلاد الشام ، وقد كان ذلك في عصر أعمت فيه العصبية الدينية أوروبا فأتت بلاد الشام نفسها تشن عليها الحرب باسم الصليب .

ج - تقلد الأطباء الوزارة : كثيراً ما كان الملوك والأمراء يفوضون الى أحد الأطباء المقربين منهم والموثوق بأمانتهم أمور الدولة وأحوالها ويعتمدون عليه في تصريف شؤونها . وقد تصل تلك الثقة الى درجة أن يقلد الطبيب الوزارة . ونعرف من الأطباء الذين حظوا بهذه المنزلة فقلدوا الوزارة أربعة ، هم فخر الدين رضوان بن الساعاتي (توفي في النصف الأول من القرن السابع) (٢٢) الذي استوزره أمير دمشق عيسى بن الملك المعادل الأيوبي (ت ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) ، ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري الذي استوزره أمير بعلبك مجد الدين بهرام شاه ، وأبو الحسن غزال بن أبي سعيد الذي استوزره أمير دمشق عماد الدين اسماعيل بن أبي بكر الأيوبي ، ونجم الدين أبو زكرياء يحيى اللبودي الذي استوزره أمير حمص ابراهيم بن أسد الدين شيركوه .

د - كثرة عدد الأطباء : لقد كانت تلك الظروف كلها ملائمة لخلق بيئة علمية حقيقية تزدهر حيزها العلوم الطبية ومباحثها ويتكاثر - نتيجة لذلك - عدد أصحاب الصناعة الطبية . ولقد أحصينا الأطباء الذين عُرِفوا في القرنين السادس والسابع الهجريين اعتماداً على التراجم التي أوردها ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء » ولسيان الكلرك في « تاريخ الطب العربي » لأطباء بلاد الشام - وهما لم يُترجما الا لمن اشتهر أمره ، ولا شك أن كثيرين ممن عاش في القرى والأماكن النائية عن العواصم الكبرى لم يذكروا فوجدنا عدداً لا يستهان بكثرته ، وخاصة في القرن السابع . فقد اشتهر في القرن السادس قرابة العشرين طبيباً .

أما القرن السابع فقد تضاعف فيه هذا العدد مرتين ليبلغ خمسة وستين طبيباً (٢٣) ، جلهم من بلاد الشام مولداً ومنشأً واقامة وقليل منهم كانوا من الوافدين الذين أقاموا فترة من الزمن فقط ، الا أنهم هم أيضاً كانت لهم مشاركة في الصناعة الطبية ، وخاصة في المعالجة وفي التدريس . ولا بد من الإشارة الى أن هذا العدد من الأطباء – الذين يضيق مجال هذا البحث عن تعدادهم ، ونكتفي بحالة الراغب في الاستقصاء على المصدرين اللذين اعتمدنا – قد اقتصت به بلاد الشام عن سواها من البلدان العربية الاسلامية طيلة تاريخ الطب العربي ، ذلك أننا لا نعرف أي بلد اسلامي آخر قد ظهر في قرن من القرون الممتدة ما بين الثالث والتاسع الهجريين ما ظهر من الأطباء في القرن السابع في بلاد الشام ، رغم خلوها في ذلك العهد من عاصمة سياسية مركزية ، ولا تدانيها في عدد أطبائها ذلك الا العراق والأندلس في القرن الرابع الهجري ، فقد كان عدد الأطباء في العراق في القرن الرابع اثنين وأربعين طبيباً ، وكان عددهم في الأندلس خمسة وثلاثين .

٣ - المؤسسات الاستشفائية :

لقد سبق للمرحوم أحمد عيسى (ت ١٩٤٦ م) في كتابه القيم « البيمارستانات في الاسلام » أن قام باحصاء البيمارستانات في الاسلام » أن قام باحصاء البيمارستانات في الاسلام » أن قام باحصاء البيمارستانات الموجودة في بلاد الشام والحديث عنها (٢٤) ، اعتماداً على مصادر عديدة . والبيمارستانات التي أنشئت في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع تسعة منها ثلاثة بمدينة دمشق وحدها ، وهي : « المارستان الصغير » و « بيمارستان باب البريد » ، ولا نعرف بالضبط سنة انشاء هذين البيمارستانين ، والثالث هو « البيمارستان الكبير النوري » وقد أنشأ هذا المستشفى الملك نور الدين محمود بن زنكي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٢٧ م) ، ومنها بيمارستان حلب ويسمى « النوري » أيضاً نسبة الى منشئه الملك نور الدين محمود بن زنكي ، ومنها بيمارستان حماة ، وقد كان قائماً سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وبيمارستان القدس ويسمى أيضاً « البيمارستان الصلاحي » نسبة الى منشئه صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) بعد أن فتح القدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٨ م ، وبيمارستان الصالحية ويسمى القيمري أيضاً نسبة الى منشئه سيف الدين أبي الحسن علي بن يوسف القيمري (ت ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) أكبر أمراء القيامرة ، وبيمارستان الجبل بقرية نيرب قريباً من دمشق ، قد أنشئ في النصف الأول من القرن السابع ، ولا ندري من أنشأه .

تلك هي المؤسسات الاستشفائية التي انتهى الى علمنا وجودها في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين ، الا أننا نشك في أن بيمارستانات أخرى كانت موجودة أيضاً في بعض المدن الكبيرة الأخرى مثل حمص وبلبك وصرخد التي سبق أن رأينا أمراءها يخصون الأطباء بصحبتههم ، يضاف الى ذلك أن نور الدين محمود بن زنكي كان قد بنى بيمارستانات كثيرة ، فقد قال عنه ابن الأثير :

وبنى المدارس الكثيرة والجوامع والبيمارستانات «(٢٥) . ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي من بعده كان قد سار نفس السيرة .

على أن البيمارستان الأكثر شهرة هو البيمارستان النوري الكبير بدمشق ويبدو أنه كان بمثابة ما يسمى اليوم بالمستشفى المركزي، بالقياس إلى ما يوجد من بيمارستانات في بقية المدن، فهذه كانت بمثابة المستشفيات الجهوية . ولعل أهم ما يدل على أهمية هذا البيمارستان في ذلك العصر احكام التنظيم فيه ، وكثرة الأطباء الذين مارسوا فيه التطبيب .

أما عن التنظيم فقد كان البيمارستان مشتملا على أقسام مرتبة لكل منها أطباؤه المختصون وقومته والمشفرون عليه ، والأقسام الطبية فيه أربعة هي قسم للأمراض الباطنة وقسم للجراحة وقسم الكحالة (أمراض العين) وقسم التجبير . وقد كان قسم الأمراض الباطنة بدوره مقسماً إلى قاعات ، وقد وجدنا عند ابن أبي أصيبعة إشارة إلى اثنتين منها هما قاعة الممرورين أي الذين بهم جنون سبمي(٢٦) وقاعة المحمومين(٢٧) . ويمكن أن نضيف إلى هذه الأقسام الأربعة ثلاثة أقسام أخرى متممة هي قسم ما يسمى اليوم بالعيادات الخارجية، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة عن الطبيب رضي الدين الرحبي أنه كان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي إلى البيمارستان ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها «(٢٨) ، وقسم الصيدلية، يشتغل فيه الصيادلة باعداد الأدوية من أشربة ومعاجين وأقراص وغيرها وبصرف الأدوية إلى المرضى ، وأخيراً قسم المكتبة والتدريس ، ومكانه في ايوان البيمارستان . فقد ذكر ابن أبي أصيبعة عن الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم أنه كان يجلس في الايوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش ، ويحضر كتب الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت في الخريستانين اللذين في صدر الايوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثه ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات(٢٩)

أما الأطباء الذين اشتغلوا بالصناعة في البيمارستان النوري طيلة الفترة التي تعيننا فقد حاول أحمد عيسى تعدادهم(٣٠) ، والعدد الذي انتهى إليه للأطباء الذين عملوا بالبيمارستان مدة قرن من الزمن (من حوالي ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م إلى حوالي ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م يبلغ واحداً وعشرين طبيباً ، وهو بدون شك عدد منقوص ونكتفي هنا بالإشارة إلى أربعة من الأطباء المشهورين الذين عملوا بالبيمارستان ولم يذكرهم وهم أبو المجد محمد بن أبي الحكم(٣١) - وقد سبقنا الإشارة إليه - وأبو اسحاق ابراهيم بن عبد العزيز السلمسي (ت ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) (٣٢) - وقد تولى رئاسة الطب في دمشق(٣٣) - والقاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥٠ م) وقد قال عنه ابنه الطبيب المؤرخ :

« . . . ويتردد أيضاً إلى بيمارستان نور الدين الكبير وله الجامكية والجراية والناس يقصدونه من كل ناحية لما يجدون في مداواته من سرعة البرء وأن أمراضاً كثيرة مما تكون مداواتها بالحديد يبرئها بذلك على أجود ما يمكن ومنها ما يعالجها بالأدوية ويبرئها بها

ويستغني أصحابها عن الحديد» (٣٤) ، وقد كان اختصاصه الكحالة ، والطبيب الرابع هو أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، صاحب « عيون الأنباء » فقد قال عن نفسه « وكان لي أيضاً في ذلك الوقت [أي حوالي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م] مقرر جامكية وجراية لمعالجة المرضى في هذا البيمارستان (أي النوري) » (٣٥) .

على أن البيمارستانات التي ذكرنا لم تكن المؤسسات الاستشفائية الوحيدة في بلاد الشام . فلقد كان الأطباء يقومون بالمعالجة خارجها أيضاً . وأهم المواضع الاستشفائية الأخرى أربعة وهي : القصور السلطانية والأميرية حيث كانت تعالج العائلات الملكية ، ثم القلاع حيث كان يعالج أعيان الدولة والحاشية ، ثم المعسكرات حيث كان يعالج الجند ، وقد كان الأطباء المباشرون في هذه المواضع الثلاثة من الذين يستصحبهم الملوك والأمراء لخدمتهم ، والموضع الرابع هو العيادة الخاصة . فقد كان الأطباء - وخاصة ممن لا يباشرون في البيمارستانات - عيادات خاصة يستقبلون فيها المرضى ، ونكتفي بالإشارة إلى مثالين اثنين هما أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ وقد كانت له دكان عطر بالبادين (في دمشق) يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه ، وكان يهييء عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك» (٣٦) وأبو الفضل عبد المنعم بن عمر الأندلسي وقد كانت له دكان في اللبادين لصناعة الطب» (٣٧) .

بقي أن نشير إلى أن المباشرة في مختلف المؤسسات الاستشفائية - ما عدا العيادات الخاصة - وكذا في مناصب التدريس كانت وظيفة تنظمها الدولة، إذ كان الأطباء يُدعون إليها بقرارات ملكية أو أميرية ، ولم تكن أجور الأطباء على أدائهم وظائفهم موحدة المقادير بل كانت متفاوتة بحسب المنزلة التي يتنزلها الطبيب في البيمارستان أو في القصر . على أن الأطباء الذين يباشرون وظائف مختلفة يتقاضون أجوراً على مختلف الوظائف . ولنا على ذلك مثال عز الدين أبي اسحاق إبراهيم بن السويدي (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) (٣٨) ، فقد كان طبيباً مباشراً في البيمارستان النوري وفي بيمارستان باب البريد وفي القلعة ، وكان مدرساً في المدرسة الدخوارية ، وكان يتقاضى على هذه الوظائف الأربع أربعة مرتبات (٣٩)

٤ - التعليم الطبي ومؤسساته :

لقد كان تعليم الطب في بلاد الشام من أهم مظاهر تطور العلوم الطبية ومباحثها في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وما كثرة الأطباء المشهورين المباشرين في ذلك العصر إلا نتيجة لذلك . وقد كانت المؤسسات التعليمية كثيرة ، وأهم أنواعها أربعة :

أ - المدارس : وأهم مدرسة نظامية انتهى إلى علمنا وجودها هي المدرسة الدخوارية، نسبة إلى مؤسسها مذهب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار . فقد كان هذا العالم الجليل سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م قد « وقف داره وهي بدمشق عند الصناعة العتيقة شرقي سوق الناخلين - وجعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب ، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن يُستغل منها ما ينصرف في مصالحها وفي جامكية المدرس وجامكية المشتغلين بها » (٤٠) .

وقد فتحت هذه المدرسة أبوابها رسمياً أثروفاة الدخوار يوم ١٢ ربيع الأول سنة ٦٢٨ هـ ١٨ فيفري ١٢٣٠ م وقد كان أول أستاذ للطب فيها - بتوصية من الدخوار نفسه - شرف الدين أبا الحسن علي بن يوسف الرحبي ، وقد تواصلت مدة تدريسه فيها حوالي عشر سنوات ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ثم خلفه سنة ٦٣٧ هـ بدر الدين المظفر ابن قاضي بعلبك (ت ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) (٤١) ، وذلك أنه لما ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود ابن الملك العادل كتب للحكيم بدر الدين ابن قاضي بعلبك منشوراً برئاسته على سائر الحكماء في صناعة الطب وأن يكون مدرساً للطب في مدرسة الحكيم مهذب الدين عبدالرحيم بن علي ، وتولى ذلك في يوم الأربعاء رابع صفر سنة سبع وثلاثين وستمائة (٤٢) . ثم درس من بعده عماد الدين الدنيسري (ت ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م) ثم محمد بن عبدالرحيم بن مسلمة (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) ثم أحمد بن عبدالله بن الحسين الأشقر (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م) (٤٣) . على أننا لا نعرف نظام الدراسة والمواد التي كانت تدرس في هذه المدرسة التي يحق لها أن تعتبر أول كلية للطب في بلاد الشام .

ب - البيمارستانات : حيث كان الأطباء المباشرون يعقدون حلقات للدرس مع تلاميذهم والأطباء المشتغلين عليهم . والدروس المقدمة في هذه الحلقات نظرية أساساً . وقد حدثنا ابن أبي أصيبعة عن أحدها وهي حلقة أبي المجد بن أبي الحكم : «... ويجلس في الايوان الكبير الذي للبيمارستان (النوري بدمشق) وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال . وكان نور الدين [بن زنكي] رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت في الخريستانين اللذين في صدر الايوان فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويقرىء التلاميذ . لا يزال معهم في اشتغال ومباحثه ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب الى داره » (٤٤) .

على أن صنفاً ثانياً من التعليم ذا منزع تطبيقي محض كان يمارس في البيمارستانات أيضاً ، وهو ما يمكن تسميته بالتعليم السريري يقوم به الأطباء المشرفون بمحضر الطلبة والأطباء المباشرين تحت الاشراف ، والمادة المنطلق منها في هذا الصنف الثاني هم المرضى المقيمون في البيمارستان . ومثال هذا الصنف من التعليم ما حدثنا به ابن أبي أصيبعة عن أستاذه مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار - وقد كان هو نفسه بين الحاضرين - : «ورأيت يوماً في قاعة المحمومين وقد وقف عند مريض ، وجست الأطباء نبضه فقالوا عنده ضعف ليعطى (كذا) مرقة الفروج للتقوية . فنظر اليه وقال ما كلامه ونظر عينيه يقتضي الضعف ، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى ، وقال : جسوا نبض يده اليسرى ، فوجدناه قوياً : فقال : انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين ، فواحدة بقيت التي تجس والأخرى طلعت في أعلى الزندوامدت الى ناحية الأصابع ، فوجدناه حقاً . ثم قال : ان من الناس وهو نادر من يكون النبض فيه هكذا ، ويشتهبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف ، وانما يكون جسمه لتلك الشعبة التي هي نصف العرق ، فيعتقدون أن النبض ضعيف » (٤٥) وهذه الطريقة - كما نرى من هذا المثال - قائمة على الملاحظة والتجريب والتشخيص .

ج - الدور السلطانية : فقد كان الملوك - فيما يبدو - يتيحون للأطباء فرص الاجتماع في القصور للمباحثة في أمور الطب . ولعل الملك أو الأمير نفسه كان يحضر بعض تلك الاجتماعات . على أن ما كان يدور في تلك اللقاءات لم يكن دروساً بالمعنى التقليدي المعروف من نوع ما كان يقدم في المدرسة أو الليمارستان ، بل كان مباحثات عامة في شكل مناظرات يتبارى أثناءها المناظرون في إظهار علمهم وتفوقهم فيه ، على الطريقة التي كان يتناظر بها في القديم علماء اللغة والفقه والأدباء وغيرهم . وقد لمَّح ابن أبي أصيبعة إلى ما كان يجري بين طبيبين شهيرين في النصف الأول من القرن السابع من مناظرات ، وهما موفق الدين يعقوب ابن صقلاب (ت ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م) (٤٦) ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار حين قال عن ابن صقلاب : « وكان في أوقات كثيرة لما أقام بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي في الموضوع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب ، فكان الشيخ مهذب الدين أوضح عبارة وأقوى براعة وأحسن بحثاً ، وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينه وأبين قولاً وأوسع نقلاً لأنه كان بمنزلة الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس في سائر كتبه من صناعة الطب » (٤٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هذا الصنف صنفاً ثانياً من الدروس - وهي دروس تعليمية حقيقية - كانت تقدم لأبناء الحاشية ممن هم في خدمة السلطان أو الأمير وخاصة منهم أبناء الأطباء الذين يقتفون عادة آثار آبائهم في الطب . ويمكن تسمية هذا الصنف من الدروس دروساً خاصة . وقد كان أبو العباس أحمد ابن أبي أصيبعة - «صاحب العيون» - أيام كان والده في خدمة أمير دمشق عيسى بن الملك العادل الأيوبي ممن تلقى هذا الصنف من الدروس أخذاً عن الطبيب ابن صقلاب . وقد حدثنا هو نفسه عن ذلك إذ قال : « ومما شاهدته من أمره (أي ابن صقلاب) أنني كنت أقرأ عليه في أوائل اشتغالي بصناعة الطب ونحن في المعسكر المعظمي - وكان أبي أيضاً في ذلك الوقت في خدمة الملك المعظم رحمه الله شيئاً من كلام إبقراط حفظاً واستشراحاً ، فكنت أرى من حسن تأتيه في الشرح وشدة استقصائه للمعاني بأحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى ما لا يجسر أحد على مثل ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكره وحاصل ما قاله حتى لا يبقى في كلام بقراط موضع إلا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة . ثم أنه يورد نص ما قاله جالينوس في شرحه شرحاً لذلك الفصل على التوالي إلى آخر قوله . » (٤٨) .

د - المجالس الخاصة : وقد كانت كثيرة الانتشار ، وقد كان الأطباء يقيمونها عادة في منازلهم الخاصة ويستقبلون فيها الطلبة والتلاميذ الراغبين في الأخذ عنهم . ومعظم أطباء الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين كانت لهم مجالسهم الخاصة ، وقد تخرج من تلك المجالس أطباء كثيرون . ومن أهم الأطباء الذين كانت لهم مجالس تذكر :

١ - مهذب الدين بن النقاش ، فانه « لما وصل إلى دمشق بقي بها يطب ، وكان أوحده زمانه في صناعة الطب ، وله مجلس عام للمشتغلين عليه » (٤٩) ، ومن التلاميذ الذين أخذوا عنه مهذب الدين بن الحاجب (توفي في النصف الأول من القرن السابع) وموفق الدين بن المطران ومهذب الدين السامري وأبو زكرياء البياسي ورضي الدين الرحبي .

٢ - موفق الدين عبدالعزيز السلمي (ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م) (٥٠) ، فقد كان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب (٥١) ، ومن أشهر تلاميذه رشيد الدين بن الصوري .

٣ - رشيد الدين بن خليفة ابن أبي أصيبعة (ت ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م) (٥٢) ، فانه لما أقام بدمشق جعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب ، واشتغل عليه جماعة ، وكلهم تميزوا في الطب (٥٣) .

٤ - شمس الدين أبا عبدالله محمد بن عبدان اللبودي (ت ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) (٥٤) ، فقد كان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها (٥٥) .

٥ - مذهب الدين عبدالرحيم بن علي الدخوار : وقد كان مجلسه في منزله فانه بعد الفراغ من البيمارستان يعود الى منزله ويستقبل الطلبة فيدخلون اليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين . وكان يقرئ كل واحد منهم درسه ويبحث معه ويفهمه اياه بقدر طاقته ، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم ان كان الموضوع يحتاج الى فضل بحث أو فيه اشكال يحتاج الى تحرير . وكان لا يقرئ أحداً الا وبيده نسخة من ذلك الكتاب الذي يقرؤه ذلك التلميذ ، ينظر فيه ويقابل به . فان كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره باصلاحه - وكانت نسخ مذهب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة وكان أكثرها بخطه وكان أبداً لا يفارقه الى جانبه - مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية - من كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، فكان اذا جاءت في الدرس كلمة لغة يحتاج الى كشفها وتحقيقها نظرها من تلك الكتب (٥٦) . ومن أهم التلاميذ الذين أخذوا عنه نجم الدين اللبودي وموفق الدين أحمد ابن أبي أصيبعة وعز الدين ابراهيم بن السويدي .

٦ - رضي الدين الرحيبي ، ويمكن اعتباره أستاذ الأجيال وشيخ العلماء بحق ، فهو قد أشغل بصناعة الطب خلقاً كثيراً ، ونبغ منهم جماعة عدة وأقرأوا أيضاً لغيرهم وصاروا من المشائخ المذكورين في صناعة الطب . ولو اعتبر أحد جمهور الأطباء بالشام لوجدنا ما أن يكون منهم من قرأ على الرحيبي أو من قرأ على من قرأ عليه (٥٧) . ومن أشهر تلاميذه ابنه شرف الدين الرحيبي ومذهب الدين الدخوار وكمال الدين الحمصي وفخر الدين الساعاتي .

وما يمكن استنتاجه - أخيراً - عن الطريقة المتبعة في هذه الدروس انها كانت تقوم - كما يقول ابن أصيبعة - « على الحفظ والاستشراح » (٥٨) من قبل الطالب ، والشرح المستوفى اعتماداً اما على أقوال السابقين أو على مذهب المدرس نفسه . أما محتوى الدراسة فيقوم على الكتب الطبية أساساً . ومن الأساتذة من يكون له اختصاص في كتب عالم بعينه ، مثل ابن صقلاب الذي كان متخصصاً في جالينوس ، وكان فخر الدين المارديني متخصصاً في ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) (٥٩) ، وأبو محمد عبدالله بن أحمد ابن البيطار كان متخصصاً في مجال الأدوية في ديوسقوريد وجالينوس (٦٠) .

٥ - في الصيدلة وعلم النبات :

لم تكن الصيدلة في القديم منفصلة عن الطب . وكان من المستحسن في الطبيب أن يكون طبيباً وصيدلاناً في نفس الوقت ، يُعد أدويته بنفسه حسب معرفته وتجاربه الخاصة . وقد بين ذلك الطبيب الاندلسي أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) في مقدمة كتابه « الأدوية المفردة » تبياناً أحسنأ بقوله : « فأما حلي الأدوية واختيارها ومعرفة الجيد منها من الرديء فهو أخص بغرض هذا الكتاب مما ذكرنا ، وإن كان أكثر أطبائنا يرون أن ذلك فصل خارج عن صناعة الطب وأن الطبيب ليس عليه علم بشيء من ذلك بل تقليد في ذلك الشجّارين والصيدالة . وأنا أقول في جواب ذلك : أما قولهم أن ذلك من غير صناعة الطب فصدقوا وذلك لأن معرفة الأدوية واختيارها إنما هو من صناعة الصيدلة لا من صناعة الطب لكن أطباءنا هؤلاء كلهم صيادلة . فمن قال منهم أنه ليس عليه معرفة الأدوية فهو منه جهل فاحش قبيح لأن أطباءنا هؤلاء كلهم هم يتولون بأنفسهم عمل الأدوية المركبة وجميع أعمال الصيدلة . وما أقبح بأحدهم لو عقلوا أن يطلب أدوية مفردة لتركيب دواء فيؤتى بأدوية لا يعلم هل هي التي أراد أم غيرها ، فيركبها ويسقيها عليه ويقلد فيها الشجّارين ولقّاطي الحشائش وقوماً لا يقرأون الكتب ولا يعرفون من الأدوية إلا أقلها ولا أكثرهم أمانة ، والذي يعرفونه من الأدوية فهم في معرفته مقلّدون لغيرهم بغير علم ، هذا إلى ما يشاهد من اختلافهم فيها وقلة اتفاقهم . وأنا أقول أن أطباءنا هؤلاء كلهم إنما هم صيادلة ، ولا تكسّب لهم ولا معاش إلا من الصيدلة وهم لا يعلمون ذلك . ومثلهم في ذلك كمثّل رجل نجار ولم يكن له كسب إلا من النجارة وهو يجهل أنه نجار ويظن أن صناعته غير ذلك . ومن جهل نفسه هذا الجهل فليس ينبغي أن يكلم أصلاً . فالطبيب الذي يحكم بما يجب للمريض من غذاء ودواء وتدبير وغير ذلك ولا يتولى شيئاً من عمل ذلك بيده هو طبيب فقط وليس بصيدلاني . والذي يتولى عمل الأدوية وتركيبها هو صيدلاني . فمن قال من أطبائنا أن معرفة الأدوية المفردة ليس بواجب علي فانما لا يجب عليه ذلك من حيث هو طبيب ، فأما من حيث هو صيدلاني فذلك واجب عليه حتى لا شيء أوكد عليه منه ، إذ كان لأشياء أضرب في الصناعة من أن يسقى دواء بدل دواء ، ولا أجهل ممن يفعل ذلك من الأطباء إذا تولى ذلك بنفسه فأما إذا سلم الأمر لغيره فالخطأ عليه دون الطبيب . ومعرفة الأدوية واختيارها يتقدم صناعة الصيدلة ، وهو كالأساس لها . فأما معرفة قواها وأفعالها فهو جزء من أجزاء صناعة الطب (٦١) .

فالطب والصيدلة اذن صناعتان مختلفتان ، إلا أنهما متكاملتان ، والطبيب الجيد الماهر هو الذي يكون في نفس الوقت صيدلاناً ماهراً ، يجيد معرفة قوى الأدوية وخصائصها المخصوصة بها وأفعالها ومنافعها ومضارها ومناسبتها والمختار منها وأبدانها ، ويجيد فن تركيبها ، ولقد كان التأليف فيها في الغالب جزءاً من التأليف في الطب العام ، ومعظم كتب الطب الكبيرة مثل « الحاوي » للرازي و « الكامل في الصناعة الطبية » للمجوسي و « التصريف لمن عجز عن التأليف » للزهراوي و « القانون » لابن سينا — تحتوي أقساماً خاصة بالأدوية المفردة أو الأدوية المركبة أو بهما معاً .

ولقد غلبت هذه النزعة الى المزج بين صناعتي الطب والصيدلة في بلاد الشام أيضاً ، في الفترة التي نتحدث عنها ، فمعظم الأطباء كانوا صيادلة ، الا أن الجانب الطبي التطبيقي كان أغلب ، فغلبت شهرة أهل الصناعة في هذه الفترة على أنهم أطباء لا صيادلة ، والفصل بين « بيت الوصف » - العيادة - و « بيت التصرف » - الصيدلية - كان أبرز ، وخاصة في البيمارستانات التي كانت الصيدليات فيها قائمة مستقلة عن قاعات المرضى ، أي قاعات العلاج ، وكانت تحت اشراف صيادلة متخصصين .

والدليل الذي عندنا على كون أطباء ذلك العصر صيادلة أيضاً هي التأليف التي وضعها عدد منهم في الصيدلة ، أي في الأدوية المفردة أو المركبة . ومن الأطباء الذين ألفوا في الصيدلة موفق الدين أبو نصر أسعد بن المطران (ت ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) ، الذي ألف كتاب « الأدوية المفردة » (٦٣) ، وأبو الفضل بن عبد الكريم المهندس (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) الذي ألف كتاب الأدوية المفردة على ترتيب حروف المعجم (٦٥) ، وكمال الدين أبو منصور بن علي الحمصي (ت ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) (٦٦) الذي ألف « الرسالة الكاملة في الأدوية المسهلة » (٦٧) ، وأبو الحجاج يوسف بن يحيى السبتي الذي ألف « رسالة في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها » (٦٨) ، وقد ألف مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار مقالة يرد فيها على رسالة أبي الحجاج (٠٠٠) في ترتيب الأغذية ٠٠ (٦٩) ، وصدقة بن ميخا بن صدقة السامري (ت حوالي ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) (٧٠) الذي وضع « مقالة في أسامي الأدوية المفردة » (٧١) ، وأبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد الذي قسم كتابه « النهج الواضح في الطب » الى خمسة أجزاء وجعل الجزء الثاني في « الأدوية المفردة وقواها » والثالث « في الأدوية المركبة ومنافعها » (٧٢) ، وعز الدين أبو اسحاق ابراهيم بن السويدي الذي ألف كتابين في الأدوية هما « التذكرة الهادية والتذخيرة الكافية في الطب » (٧٣) ، وكتاب « السمات في أسماء النبات » (٧٤) ، وقد قلد في الكتاب الأول كتاب أستاذه ابن البيطار « المغني في الأدوية المفردة » فأخذ من مادته ورتبه مثله بحسب منافع الأدوية للأعضاء الآلة في الجسم (٧٥) .

ونريد أن نختم الحديث عن هذا المظهر بالحديث عن طبييين قد تميزا في التأليف في الأدوية المفردة وخرجا فيه عن المألوف فحق لهما أن يعتبرا من عظماء علماء النبات . أولهما رشيد الدين بن الصوري الذي كان « واحداً (كذا) في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها » (٧٦) . وقد ألف فيها كتاباً جليلاً كان نتيجة تجربة وبحث ميداني يقوم به أثناء جولات تعشيبية بحثاً عن النباتات في مظانها للتحقق من صفاتها وماهياتها ، والتعرف على أدوية جديدة لم يذكرها المتقدمون ، ولذلك كان كتابه في الأدوية المفردة جامعاً قد « استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون » (٧٧) . وقد سلك في التعرف على النبات طريقة قد صورها لنا ابن أبي أصيبعة بقوله : « وكان يستصحب مصوراً معه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها . فكان يتوجه رشيد الدين بن الصوري الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل منها بشيء

من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم انه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يريه اياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلوذلك ، ثم يريه اياه أيضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره ، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض ، فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له آيين » (٧٨) .

أما العالم الثاني فهو أبو محمد عبدالله بن أحمد ابن البيطار . وابن البيطار كما هو معلوم أندلسي ، قد ارتحل الى المشرق وعاش فيه حوالي الثلاثين سنة . وقد ترجم له ابن أبي أصيبعة ضمن علماء مصر (٧٩) ، وتابعه في ذلك ابن فضل الله العمري في « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » (٨٠) ولكلرك في « تاريخ الطب العربي » (٨١) . الا اننا نعتقد أن مصر ليست أحق به من بلاد الشام لأن مدة إقامته في المشرق كانت موزعة بين مصر وبلاد الشام فلم تختص به احدهما دون الأخرى ، بل ان وفاته كانت في بلاد الشام ، بدمشق ، وبدمشق أيضاً كان له تلاميذ كثيرون من أشهرهم موفق الدين أبو العباس ابن أبي أصيبعة وعز الدين أبو اسحاق ابن السويدي .

كان ابن البيطار شيخ الصيدالة وامام النباتيين بدون منازع ، تدل على ذلك تسميته في كتب التراجم بالنباتي والعشاب ، وشهادة تلميذه ابن أبي أصيبعة بأنه « أوحده زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها » (٨٢) . وقد أهله هذه الدراية الفائقة ليكون - في مصر - رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات . والذي يهمنافي هذا المجال خبرته بنباتات بلاد الشام ومعرفته الفائقة بها . فقد كان يقوم برحلات تعشيبية داخل بلاد الشام - في مختلف أنحاءها - بحثاً عن النباتات في مظانها وتعرفاً على ماهياتها وخصائصها . وقد أشار ابن أبي أصيبعة الى بعض من تلك الرحلات ، هي التي كان يقوم بها الى ظاهر دمشق صحبة ابن أبي أصيبعة نفسه الذي قال عنه « ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه » (٨٣) . وقد ظهر أثر تلك الرحلات التعشيبية في كتب ابن البيطار . فقد تحدث فيها عن كثير من النباتات الشامية ، نذكر من ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - قوله في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » - وهو أجل كتاب عربي في المادة الطبية - عن النبات المسمى « بنتومة » : « هذا نبات يعرف بهذا الاسم عند شجارينا ببلاد الأندلس ، وتعرفه أيضاً بالرقعة الفارسية وبذرق الطير ، وكذا يعرف بأرض الشام أيضاً ، وخاصة ببلاد نابلس ما ولاها . وأما أهل الشويك من أرض الشام فانهم يعرفونه بالعنم » (٨٤) ، وعن النبات المسمى « درونج » : « كثير بجبل بيروت من أعمال الشام ، ومنه شيء بكفر سلوان بجبل لبنان شمالي الضيعة ، ويعرفونه بالعقيرة » (٨٥) ، وعن نبات « العقاقر قرحا » : « وهذا الدواء المعروف بعود القرح الجبلي كثير بأرض الشام (٠٠٠) ، وقد رأيت وجمعت بظاهر دمشق في رأس وادي بردة بموضع يعرف ببابل السوق على يسرى الطريق وأنت طالب

الزبداني « (٨٦) ٠٠ الخ ، ومثل هذا كثير في كتبه « المعني في الأدوية المفردة » و « للابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام » - وهو في نقد كتاب « منهاج البيان » لابن جزلة - « تفسير كتاب دياسقوريدوس » ، وهذه الكتب الثلاثة لا تزال مخطوطة لم تنشر بعد . وهذه الشواهد النباتية الشامية الكثيرة دالة على نراء البيئة الشامية وأهميتها ، وأثرها العميق في كتب الطب والصيدلة والنبات العربية ، وهو أثر لم يظهر في كتب ابن البيطار فقط بل في كتب أخرى كثيرة نكتفي بالإشارة منها إلى كتاب أبي العباس أحمد بن محمد ابن الرومية الاشبيلي النباتي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) المعروف بالرحلة المشرقية . فقد مر أبو العباس النباتي ببلاد الشام هو أيضاً ، وأقام بها مدة ، وخاصة بدمشق ، وكان لأرض بلاد الشام أثر في رحلته ، مثلما كان لها أثر في كتب تلميذه ابن البيطار .

التعليق :

- ١ - القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٠٥ ، ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ، ص ٢١١ .
- ٢ - القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٠٥ ، ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٤٤/٢ - ١٥٥ ، ابن العبري : المختصر ، ص ٢١١ ، لكرك : تاريخ الطب العربي ٣٩/٢ .
- ٣ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٥٥/٢ ، لكرك : التاريخ ٣٩ / ٢ .
- ٤ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٥٥/١ - ١٥٧ ، لكرك : التاريخ ٤٠/٢ .
- ٥ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٥٧/٢ - ١٦١ ، لكرك : التاريخ ، ٤٠/٢ - ٤١ .
- ٦ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٦٣/٢ ، لكرك : التاريخ ٤١/٢ - ٤٢ .
- ٧ - القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ ، ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٣١٣/٢ ، ابن العبري : المختصر ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، لكرك : التاريخ ١٦٦/٢ - ١٦٧ .
- ٨ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٣٣/٢ ، لكرك : التاريخ ٢٢٥/٢ - ٢٣٧ ، ابراهيم بن مراد : المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية (اطروحة مرقونة ، تحت الطبع) ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- ٩ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٦٤/٢ - ١٦٧ ، لكرك : التاريخ ٤٧/٢ .
- ١٠ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٦٢/٢ - ١٦٣ ، لكرك : التاريخ ٤١/٢ .
- ١١ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٩٩/١ - ٣٠١ ، لكرك : التاريخ ، ٢٧/٢ - ٢٨ .
- ١٢ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٠١/٢ - ٢١٣ ، لكرك : التاريخ ، ١٨٢/٢ - ١٨٧ .
- ١٣ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٩٢/٢ - ١٩٥ ، لكرك : التاريخ ، ١٦٣/٢ - ١٦٤ .
- ١٤ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٠١/٢ ، لكرك : التاريخ ١٦٥/٢ .
- ١٥ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٩٥/٢ - ٢٠١ ، لكرك : التاريخ ١٦٥/٢ .
- ١٦ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٣٣/٢ - ٢٣٤ ، لكرك : التاريخ ، ١٧٥/٢ - ١٧٦ .
- ١٧ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢١٩/٢ - ٢٣٠ ، لكرك : التاريخ ، ١٧٤/٢ - ١٧٥ .
- ١٨ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٧٤/٢ - ١٧٥ ، لكرك : التاريخ ، ٢١٠/٢ .
- ١٩ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٣٤/٢ - ٢٣٩ ، لكرك : التاريخ ، ١٧٧ / ٢ .
- ٢٠ - ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٨٥/٢ - ١٨٩ ، لكرك : التاريخ ١٦٠/٢ - ١٦١ .

٢١- لكلرك : التاريخ ، ١٨٧/٢ ، وانظر ايضا : ابن ابي
اصيبعة ، العيون ، ٢ / ١٩٨ ، و ٢٢١/٢ - ٢٢٢ .

٢٢- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ١٨٣/٢ - ١٨٤ ، لكلرك :
التاريخ ، ١٥٩/٢ .

٢٣- يضاف الى الاطباء الذين ترجم لهم ابن ابي اصيبعة
في العيون ولكلرك في تاريخه تسعة عشر طبيباً على الأقل
قد ذكرهم مؤلف العيون عرضاً ولم يترجم لهم فلم
يترجم لهم لكلرك بدوره ، وهؤلاء الاطباء المغمورون هم :
علي بن حامد الدخوار - وقد كان كحالا مشهوراً -
وابنه حامد بن علي بن حامد الدخوار وقد كان كحالا
ايضاً ، وهما والد الطبيب الكبير مذهب الدين عبد الرحيم
الدخوار واخوه (العيون ، ٢٣٩/٢) وابن حمدون
الجرانجي وقد كانت له يد طولى في العلاج (العيون ،
١٧٩/٢) وقد كان يعمل في البيمارستان النوري مع
ابن المطران ، وموفق الدين بن الصرف ، وقد كان في
البيمارستان النوري مع مذهب الدين عبد الرحيم
الدخوار (العيون ، ٢٤٨/٢) وهبة الله بن المطران
واخ له لم يذكر اسمه - وهما اخوا موفق الدين
ابي نصر اسعد المطراف النصراني - (العيون ١٧٩/٢
- ١٨٠) ، وامين الدولة ابو الفتح
ابن ابي النجم النصراني (العيون ، ١٨٣/٢)
وابراهيم بن خلف السامري (العيون ، ١٩٣/٢) ،
وصدقة اليهودي - والد اوحده الدين عمران - (العيون ،
٢١٣/٢) ، وشمس الدين ابو الفضل بن ابي الفرج
المطواع الكحال ، وقد كان صديقاً لابي العباس احمد
بن ابي اصيبعة (العيون ، ١٤٥/٢ - ١٥٥) ونضيف
الى هؤلاء سبعة آخرين على الأقل لم نذكر اسمائهم
بل اكتفى صاحب العيون بالتلميح اليهم ، وهم من
عائلة الطبيب عفيف بن سكرة ، فقد كان « له اولاد
واهل اكثرهم مشغولون بصناعة الطب ومقامهم بمدينة
حلب » (العيون ، ١٦٤/٢) ، وابناء ابي الفرج
النصراني الذين اشتغلوا بصناعة الطب واقاموا
بسميساط (العيون ، ١٨٣/٢) .

٢٤- احمد عيسى : البيمارستانات في الاسلام ، صص ٢٠٣
- ٢٦٠ .

٢٥- ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، طبعة منقحة عن طبعة
طوبنبرق Toremberg ، بيروت ١٩٦٥ - ١٩٦٦

(١٢ جزءاً + جزءاً للفهارس) ، ٤٠٤/١١ .

٢٦- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ٢٤٢/٢ .

٢٧- نفس المصدر ، ٢٤٣/٢ .

٢٨- نفس المصدر ، ٢٤٣/٢ .

٢٩- نفس المصدر ، ١٥٥/٢ .

٣٠- احمد عيسى : البيمارستانات في الاسلام ، صص ٢١٦
- ٢٢٢ .

٣١- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ١٥٥/٢ .

٣٢- نفس المصدر ، ، ١٩٢/٢ : لكلرك : التاريخ ، ٢ /
١٦٢ - ١٦٣ .

٣٣- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ١٩٢/٢ .

٣٤- نفس المصدر ، ٢٤٩/٢ .

٣٥- نفس المصدر ، ٢٢١/٢ .

٣٦- نفس المصدر ، ١٥٦/٢ .

٣٧- نفس المصدر ، ١٥٧/٢ .

٣٨- نفس المصدر ، ٢٦٦/٢ - ٢٦٧ ، ولكلرك : التاريخ ،
١٩٩/٢ - ٢٠٢ .

٣٩- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ٢٦٦/٢ .

٤٠- نفس المصدر ، ٢٤٤/٢ .

٤١- نفس المصدر ، ٢٥٩/٢ - ٢٦٣ ، ولكلرك : التاريخ ،
١٧٠/٢ .

٤٢- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ٢٤٤/٢ - ٢٤٥ .

٤٣- احمد عيسى : البيمارستانات في الاسلام ، صص ٤١٠
- ٤١١ .

٤٤- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ١٥٥/٢ .

٤٥- نفس المصدر ، ٢٤٣/٢ .

٤٦- القفطي : تاريخ الحكماء ، صص ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ابن
ابي اصيبعة : العيون ، ٢١٤/٢ - ٢١٦ ، ابن العبري :
المختصر ٢٥٣ - ٢٥٤ ، لكلرك ، التاريخ ، ١٦٩/٢ -
١٧١ ، وهو عند جمال الدين القفطي « ابن صقلان »
بالنون في آخره ، وقد نقل عنه ابن العبري ولكلرك ذلك .

٤٧- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ٢١٥/٢ .

٤٨- نفس المصدر ، ٢١٤/٢ - ٢١٥ .

٤٩- نفس المصدر ، ١٦٢/٢ .

٥٠- نفس المصدر ، ١٩١/٢ - ١٩٢ ، لكلرك : التاريخ
٤٦/٢ - ٤٧ .

٥١- ابن ابي اصيبعة : العيون ، ١٩٢/٢ .

٥٢- نفس المصدر ، ٢٤٦/٢ - ٢٥٩ ، لكلرك : التاريخ ،
١٧٩/٢ - ١٨٢ .

- ٥٣- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٥٠/٢ .
- ٥٤- نفس المصدر ، ١٨٤/٢ - ١٨٥ ، لكلوك التاريخ ، ٢/ ١٥٩ - ١٦٠ .
- ٥٥- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٨٤/٢ .
- ٥٦- نفس المصدر ، ٢٣٤/٢ .
- ٥٧- نفس المصدر ، ١٩٣/٢ .
- ٥٨- نفس المصدر ، ٢١٤/٢ .
- ٥٩- نفس المصدر ، ٢٣٩/٢ .
- ٦٠- نفس المصدر ، ١٣٣/٢ .
- ٦١- الغافقي : الأدوية المفردة - مخطوطة الخزانة العامة للوثائق بالرباط ، رقم ق ١٥٥ (٤٠٠ ص) ، ص ص ٥ - ٧ وانظر : ابراهيم بن مراد : « أبو جعفر أحمد الغافقي في كتاب الأدوية المفردة : دراسة في الكتاب وتحقيق لمقدمته » في مجلة « الصيدلاني العربي » (دمشق) ، ٢ (١٩٨٢) ، (ص ص ٧٠-٨١) ، ص ٧٩ .
- ٦٢- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٧٥/٢ - ١٨١ ، لكلوك : التاريخ ، ٤٣/٢ - ٤٥ .
- ٦٣- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٨١/٢ .
- ٦٤- نفس المصدر ، ١٦٠/٢-١٦١ ، لكلوك : التاريخ ، ١٦٢/٢ .
- ٦٥- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٩١/٢ .
- ٦٦- نفس المصدر ، ٢٠١/٢ ، لكلوك : التاريخ ، ١٦٧/٢ - ١٦٨ .
- ٦٧- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٠١/٢ .
- ٦٨- نفس المصدر ، ٢١٣/٢ .
- ٦٩- نفس المصدر ، ٢٤٦/٢ .
- ٧٠- نفس المصدر ، ٢٣٠/٢ - ٢٣٣ ، لكلوك : التاريخ ، ١٧٥/٢ .
- ٧١- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢٣٣/٢ .
- ٧٢- نفس المصدر ، ٢٣٩/٢ .
- ٧٣- نفس المصدر ، ٢٦٧/٢ .
- ٧٤- ماكس مايرهوف : شرح أسماء العقار لأبي عمران موسى بن ميمون القرطبي (تحقيق النص العربي مع ترجمة فرنسية) ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٤٠ (٧٩ + ص ص ٧٦ + ٧٦ ص) ، ص ٢٢ من المقدمة الفرنسية .
- ٧٥- لكلوك : التاريخ ، ١٩٩/٢ .
- ٧٦- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ٢١٦/٢ .
- ٧٧- نفس المصدر ، ٢١٩/٢ .
- ٧٨- نفس المصدر ، ٢١٩/٢ .
- ٧٩- نفس المصدر ، ١٣٣/٢ .
- ٨٠- العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الجزء الخامس ، مخطوطة معهد المخطوطات العربية (الجامعة العربية) ، رقم ف ٢٦ (معارف عامة) ، ص ص ٦١٤ - ٦١٧ .
- ٨١- لكلوك : التاريخ ، ٢٢٥/٢ - ٢٣٧ .
- ٨٢- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٣٣/٢ .
- ٨٣- نفس المصدر ، ١٣٣/٢ .
- ٨٤- ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ١٢١/١ .
- ٨٥- نفس المصدر ، ٩٠/٢ .
- ٨٦- نفس المصدر ، ١١٥/٣ .

مصادر البحث

- ١- ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق أوغست مللر - ط ١ ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ (جزآن) ، ١٨٨٢ .
- ٢- ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ط ١٠ ، بولاق ، ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م (أربعة أجزاء) .
- ٣- ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس) : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٥٨ (٣٤٦ ص) .
- ٤- عيسى (أحمد) : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨١ (٢٩٣ ص) .
- ٥- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) : تاريخ الحكماء ، وهو منتخب الزوذي المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي ، تحقيق يوليوس لبر ، ط ١٠ ، ليبزيغ ، ١٩٠٣ (٤٩٥ + ٢٢ ص) .
- ٦- لكلوك : تاريخ الطب العربي :

« Histoire de la Médecine Arabe », par Lucien Leclerc 1ère éd., Paris, 1876 (2 Vol.).

* لم نثبت في هذه القائمة الا العناوين التي اعتمدت في البحث اكثر من مرة .